الفصل

1

الأصـول

إن المدخل الذي يؤدي إلى غرفة مكتب الدكتور هو عادي تماماً. إذ يعيش الدكتور ويعمل في حي ينتمي إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة في ڤيينا وفي شقة سكنية على شارع هادئ من شوارع هذه المدينة. تصعد الدرج المؤدي إلى مكان الإقامة الذي يحمل اسم «البروفسور الدكتور فرويد» ثم افتح الباب وادخل إلى غرفة الانتظار سيخرج الدكتور حالاً من أجل موعدك. قامته معتدلة تساوي تقريباً سبعة أقدام منحنية قليلاً ويرتدي لباساً لائقاً ومرتباً جداً يشبهه لباس أستاذ جامعي أنيق.

وعلى الرغم من أن عيناه بنيتان غامقتان فإنهما تلمعان وتضيئان لدرجة تبدوان كأنهما قادرتان على اختراقك.

وبنغمة فيها روح السلطة يدعوك إلى الدخول عبر غرف مكتبه.

عندما تسير إلى غرفة الاستشارة تلحظ في هذه الغرفة الصغيرة الداكنة أن الدكتور قد أنشأ متحفاً مصغراً. وأنت تسير بخطى واسعة على سجادة داكنة منقوشة على الطراز الشرقي تُحدق بالكنوز التي تحيط من حولك.

إلى اليسار منك سترى رفوفاً ورفوفاً من التماثيل الصغيرة: آلهة المصريين ملونة بألوان باهتة، وفخار جاف وجمل ذو سنمين، ورؤوس إغريقية بعيون لا ترى وشعر متجعد، وتماثيل لبوذا وهو جالس بسكينة متصالب الساقين. وثعابين ملتفة وكؤوس القرابين. تنتابك الرغبة في التقاط واحدة من هذه الأشياء لكنك تشعر نوعاً ما أن كل شيء موجود في مكانه المناسب تماماً وأن البروفسور سوف يلاحظ فيما إذا تحرك أي شيء من مكانه.

حيثما نظرت، رأيت الجدران مزدحمة بقطع من اللوحات القديمة والموزاييك والحجارة. وأمامك سرير ذو نهاية مرتفعة على نحو يمكن فيه للمرضى أن يضجعوا بارتياح. ويغطي السرير سجادة خلابة وعدد من الوسائد.

يجلس الدكتور على كرسي خلف الطرف الرأسي للسرير ويشير إليك لكي تستلقي عليه. لا يمكنك رؤية الدكتور وأنت مستلقٍ على السرير لكنك تستطيع فقط أن تُعجب بتحفه. وبينما أنت مستلق على ظهرك على الوسائد تدرك بشكل ضعيف أرومة السيجار ودخان الفحم المتصاعد من الموقد. لقد تخيلت من قبل أن غرفة الاستشارة هذه سوف تكون غرفة مجهزة وظيفياً كغرف

مكاتب الدكاترة الآخرين ـ مكان مغطى بالشراشف البيضاء وتصدر عنه رائحة الصابون المضاد للعدوى الواخزة.

ما نوع الدكتور الذي يعالجك في متحف من الصمديات؟

عندما يفكر معظم الناس بالمعالجين النفسيين، فإن ما يخطر ببالهم هو صورة فرويد وهو جالس بهدوء يراقب ويدخن سيجاراً في الوقت الذي يكون المريض فيه مستلقياً على سرير ويتحدث عن أمه. قليل هم العلماء الذين كانوا مؤثرين أو تعرضوا للشجب على نطاق واسع كما كان حال فرويد.

لقد خضعت نظريات فرويد، في الحب واللغة والنفوذ البشري والموت، للدراسة في أنحاء العالم وتم تطبيقها في مجالات علمية تراوحت من علم النفس إلى علم الأقوام إلى نظرية الأدب.

ومع ذلك، كلما خضعت أعمال فرويد للدراسة ثارت مناظرات حامية حولها.

لقد تم انتقاد التحليل النفسي، وهو العلاج الذي طوره فرويد لمعالجة المرضى العقلي، لكونه خطيراً خطراً يفوق التحمل ولكونه غير مجدٍ تماماً. لقد أرعبت كتاباته عن الجنسية الطفولية وغريزة الموت كثيراً من النقاد.

لقد كان فرويد مذنباً في نظر النقاد بسبب تقديم إدعاءات غامضة لا يمكن إثباتها علمياً وبسبب التأكيد

obeikandl.com

على أن دافع الجنس هو فوق جميع الدوافع البشرية الأخرى وبسبب استخدام خبرته الشخصية على أنها النموذج القدوة بالنسبة للنمو النفسي عند البشر.

بعض هذه الاتهامات صحيحة. وبعضها الآخر يمثل سوء فهم لكل من النظرية والإنسان إلا أن فرويد لم يحلم ببساطة بالتحليل النفسي بعد قراءة عدد هائل من الكتابات الرخيصة.

لقد كان عالماً مدرباً تدريباً محترفاً والذي اعتمدت دراسته عن المرض العقلي على أساس نظريات علم الأحياء التي كانت مقبولة على نطاق واسع في القرن التاسع عشر. وأهم من ذلك، ليس هناك عقيدة فرويدية ثابتة. فلقد تطورت أفكار فرويد عبر سنين حياته وظل ينقح في نظرياته حتى مماته. كما قام أتباعه بمراجعة وتوسيع أعماله ولا يزالون يفعلون ذلك حتى هذا اليوم.

لم يكن في نية فرويد أن تنتقل طرائقه إلى العالم. وعلى الرغم من أنه كثيراً ما كان يستخدم أمثلة من حياته الخاصة في أعماله، إلا أنه كان رجلاً يقدس الخصوصية. لقد أحرق دفاتره ومذكراته ومسوداته القديمة في عام 1885 وكرر ذلك في عام 1907. وأثناء الجولة الأولى من عملية الإتلاف كتب إلى خطيبته:

«أما بالنسبة لِكُتَّاب التراجم، دعيهم يقلقوا، فليس عندنا رغبة في أن نسهل عليهم مهمتهم. سيكون كل واحد منهم محقاً في رأيه عن (نشوء البطل)» وبالرغم من

هذه الجهود فقد نجى عدد من الرسائل ومسودات فرويد يكفي ليبين أنه لم يكن بطلاً فقد كان باحثاً لامعاً وثائراً علمياً. لم يكن فرويد شخصاً حقيراً ولا مقدساً ولكنه كان رجلاً شجاعاً مثيراً للإعجاب.

وُلد سيغيسموند فرويد Sigismund Scholomo Frued لأميليا Amalia ويعقوب (جيكوب) فرويد Jacob Freud في السادس من شهر أيار عام 1856 عاشت عائلة فرويد في بلدة فريبيرغ Freiberg في موراڤيا Moravia وهي جزء من الامبراطورية النمساوية الهنغارية التي تقع اليوم داخل جمهورية التشيكك. فريبيرغ المعروفة اليوم باسم بريبور Pribor كانت بلدة صغيرة تتألف من 5,000 نسمة. عندما ولد سيغموند، كانت أسرته تعيش في غرفة واحدة مستأجرة في الطابق الثاني من بيت متواضع فوق دكان حداد. ذلك في الوقت الذي كان فيه معظم اليهود في موراڤيا فقراء يعيشون في أحياء ضيقة. نشأ جيكوب فرويد في غاليسيا Galicia. وهي مقاطعة في الامبراطورية النمساوية الهنغارية التي تم تقسيمها الآن بين بولندا. وجمهورية التشيك. وغادر موطنه وهو في عمر 29 عاماً وسافر إلى فريبيرغ حيث انضم هناك إلى جده الذي كان يعمل تاجراً للأقمشة. وفي عام 1859 عندما كان عمر سيغيسموند ثلاثة أعوام انتقلت الأسرة إلى لايبزغ Leipzig في ألمانيا لمدة عام وبعده إلى ڤيينا عاصمة الامبراطورية النمساوية الهنغارية. وقبيل ذلك جاء لعائلة فرويد طفل ثان هي شقيقة فرويد أنّا Anna وفي السنوات الست التي

تبعت ذلك تضخمت عائلة فرويد مع قدوم أربعة بنات أخريات هن أدولفين Adolfine وماري Marie، وبولين Pauline، وروسا Rosa وابن ثانٍ هو ألكساندر Alexander.

أمضى سيغيسموند سنواته الثلاث الأولى محاطاً بالسهول الذهبية والغابات الخضراء، مع جبال كارباتيان التي تلوح في الأفق البعيد. لم ينس أبداً بلدته المحبوبة فريبيرغ، وعندما أصبح عمره 75 عاماً كتب «ففي أعماق نفسي لا يزال يعيش الطفل السعيد من فريبيرغ الوليد الأول لأم شابة، الذي استقبل أول الانطباعات التي لا يمكن محوها من ذلك الهواء وتلك الأرض». بينما تركت ڤيينا، في المقابل، انطباعاً مريضاً عنده، كتب إلى صديقه ويلهالم فلييس Wilhelm Fliess في عام 1955 مصرحاً عن مشاعره «أنا متعطش مثل تعطش الفتى إلى الربيع والشمس والأزهار وإلى امتداد المياه الزرقاء. أكره ڤيينا كراهية شخصية أكيدة وعلى العكس تماماً من عملاق أنتايوس Antaeus أستمد القوة الجديدة كلما أبعدت قدماي عن أرض هذه المدينة التي هي مدينتي». في ڤيينا واجه فرويد اللاسامية، التي تمثل عداءً شديداً لليهود وعانى من توبيخات وإخفاقات مهنية متكررة. ومع ذلك فقد عاش هناك من عمر 5 سنوات وحتى عمر 82 سنة.

لقد كانت ڤيينا موطن فرويد. وارتحل عنها فقط بسبب الغزو النازي للنمسا في عام 1938.

عندما ولد سيغيسموند، كان عمر جيكوب (يعقوب) 40 عاماً وكان عمر أميليا 21 عاماً. كانت أميليا امرأة جميلة جداً وفخورة بمظهرها. وعندما أصبح عمرها 90 عاماً، رفضت أن تشتري قبعة عرضتها عليها إحدى بناتها وصاحت قائلة «لا أريد أخذ هذه القبعة، لأنها تجعلني أبدو عجوزاً! أما أحفادها فقد وصفوها على اختلافهم بأنها الإعصار أو التسلط فهي المرأة الانفعالية التي لا تكظم غيظها. وفي رسالة إلى خطيبته ادعى سيغيسموند أن أمه قد أعطته «سمة الانفعالية» أي طبعه الحاد وانفعالاته الجياشة.

وفي المقابل كان جيكوب (يعقوب) هادئاً وغير فعّال. كان رجلاً طويل القامة ذو كتفين عريضتين ويقرأ الكتاب المقدس في المنزل.

اعتقد سيغيسموند فيما بعد أنه نسخة عن أبيه من الناحية الجسدية والنفسية. فقد كان جيكوب (يعقوب) فرويد متفائلاً على الدوام لكنه لم يكن في يوم من الأيام ناجحاً جداً في التجارة وفي السنين المتأخرة من حياته أصبح غير قادر على إعالة أسرته.

عندما كان عمر سيغيسموند 28 عاماً كتب يناشد أبناء يعقوب من زواجه الأول وهم فيليب Philipp، وعمانويل Emanuel طالباً منهما أن يخرجا أبيهما من عسرته المالية.

لقد نشأ يعقوب كيهودي أرثوذوكسي فقرأ وتكلم اللغة

العبرية بطلاقة. ومع ذلك فقد تجاهل معظم المناسبات الدينية وعامل الأعياد كعيد البوريم Purim وعيد الفصح Passover على أنها احتفالات عائلية بدلاً من كونها أعياد دينية. حتى أنه استأجر قابلة غير يهودية عند ولادة ابنه البكر.

ادعى سيغيسموند فيما بعد أن أباه «قد سمح لي أن أنمو بعيداً تماماً عن كل ما يتعلق باليهودية» لم تكن هذه العبارة صحيحة تماماً لأنه وفقاً لما جاء في سيرته الذاتية، بدأ سيغيسموند بقراءة العهد القديم عندما كان قد «اكتسب بالكاد مهارة القراءة» إلا أنه لم يتعلم أبداً قراءة العبرية.

لقد خاب أمل سيغيسموند في أبيه الذي كان يرى فيه شخصاً ضعيفاً وكانت من أنشط ذكرياته في الطفولة قصة أبيه عن الحادثة التي جرت له عندما كان شاباً وبينما كان يعقوب يسير في نزهة وإذا بشخص مسيحي يقتلع من رأسه قبعته الجديدة ويصيح في وجهه «أيها اليهودي، انزل عن رصيف المشاة!» وحينما سأل سيغيسموند أباه وماذا فعلت؟ أجاب يعقوب «نزلت إلى الطريق والتقطت قبعتي».

لم يكن سيغيسموند سعيداً باستجابة أبيه فقد درس في المدرسة الأعمال الكبيرة للأبطال وكان معجباً بشكل مطلق بموسى، نبي اليهود الذي أنقذ شعبه من العبودية في مصر وحمل إليهم الوصايا العشر عند جبل سيناء.

أطلق سيغيسموند على جنوده من الدمى اسم

جنرالات نابليون. كذلك فإنه عظَّم هانيبعل Hannibal الجنرال الشمال أفريقي الذي قَدِمَ بجيشه إلى جبال الألب وإلى بوابات روما. وبالنسبة إلى سيغيسموند يمثل هانيبعل رمزاً للتحدي الخارجي للسلطة القائمة في روما (تماماً مثلما كان على اليهود أن يتحدوا أمام الروم الكاثوليك. الذين يشكلون غالبية السكان النمساويين). وفي مرحلة متأخرة من حياته واجه فرويد بجسده أعداء السامية صائحاً بغضب، متهماً ومشيراً بعصاه وهو يسير إلى أولئك الذين يصرخون في وجهه ويوبخونه.

والدة فرويد، أميليا بقيت ذات تأثير قوي على فرويد حتى وفاتها وهي في عمر 95 عاماً.

ليس من الواضح كيف جمع يعقوب فرويد ماله حينما ذهب إلى ڤيينا، إذ لم يظهر اسمه في كتب دليل التجارة أو قوائم رجال الأعمال الذين يدفعون الضرائب في زمانه. من الممكن أن يكون قد اقترض يعقوب المال من أقرباء زوجته ومن ولديه الكبيرين من زواجه الأول فيليب وعمانويل لكي يستطيع العيش. إذ كان بمقدوره إعالة أميليا وأولاده السبعة بشكل مريح وتقديم الكتب وتذاكر المسرح لهم والحصول على لوحات فيها رسومات مشخصة لأطفاله ودفع رسم التسجيل كاملاً لمدرسة سيغيسموند. عانت أميليا من مرض السل وكانت تقوم بزيارات متكررة إلى مصحات ومناطق اصطياف في جبال

كارباثيان لتستعيد صحتها. وفي عام 1865 تمت إدانة يوسف Josef شقيق يعقوب بجرم تزوير العملة، ومن الجائز أن يكون كل من يعقوب وفيليب وعمانويل متورطين في عمليات يوسف غير المشروعة، التي ساعدت بكل تأكيد في دعم عائلة فرويد في أمورها المالية.

كان سيغيسموند مدللاً وظلت أمه تدعوه «سيغي الذهبي» حتى توفيت وعمرها 95 عاماً وكثيراً ما أخبره أقاربه الكبار في السن أنه عندما ولد قالت امرأة مزارعة لأمه أميليا أنها قد «أنجبت للعالم رجلاً عظيماً» وفي مناسبة أخرى حينما كان سيغيسموند في عمر 12 عاماً أخبره شاعر جوال أنه سوف يصبح وزيراً. وعندما باشر سيغيسموند الحضور في الجامعة في عام 1875 تم منحه غرفة خاصة به في المنزل بينما تم حصر أعضاء الأسرة الثمانية في غرف النوم الثلاث المتبقية.. أرادت عائلة فرويد أن تقدم تضحيات للابن البكر اللامع.

لقد تركت خلفية فرويد اليهودية ملامح عميقة على كل من تطوره المعرفي وعلى حياته في المجتمع عندما استولت النمسا على غاليسيا Galicia في عام 1772 زاد عدد اليهود في النمسا من 70,000 نسمة إلى 300,000 نسمة تقريباً، كانت استجابة الزعماء النمساويين لهذا الوضع بأن شرعوا قوانين يمكنها أن تخفض من عدد السكان اليهود. فكان على اليهود أن يدفعوا ضرائب مرتفعة، أو أن يتعرضوا لحظر الطرد من مواطنهم. لقد

obeikandi.com

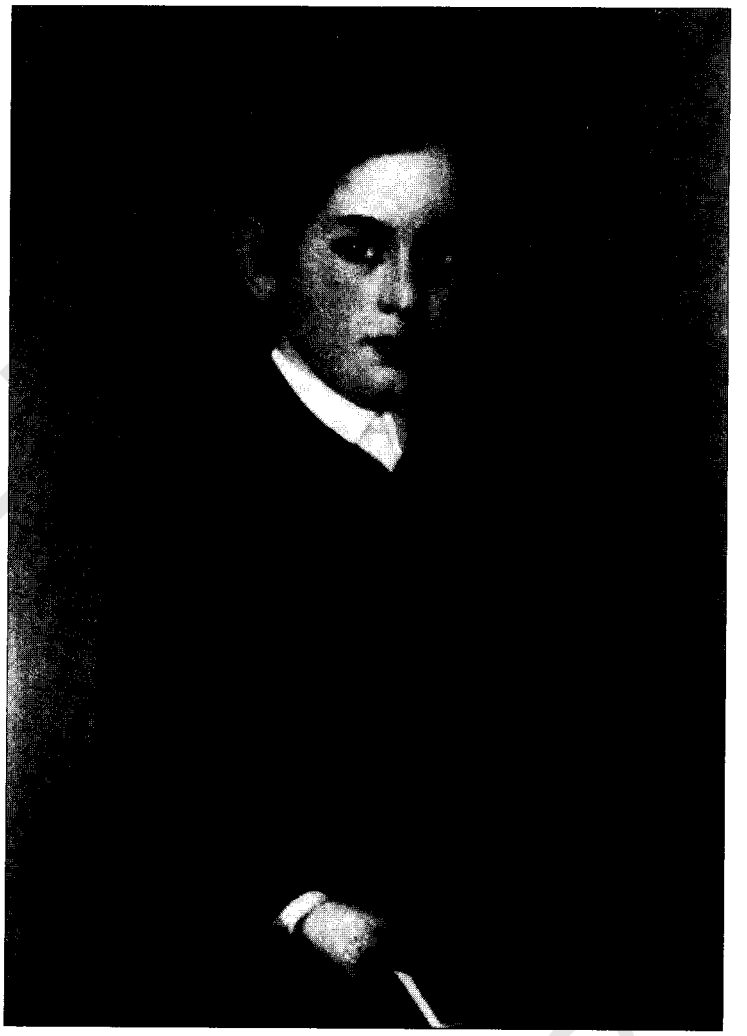

بما أن الطفل الأكبر من بين الأطفال السبعة هو سيغيسموند كان مدللاً من قبل أبويه وعندما باشر الحضور في جامعة ڤيينا في عام 1873، أعطي غرفة خاصة به من منزل العائلة المزدحم بينما فُرض على بقية إخوانه المشاركة فيما بينهم.

منعت ضريبة الزواج المرتفعة كثيراً من اليهود من الإقدام على الزواج، إلا في السر، وكان على أطفال اليهود أن يذهبوا إلى المدارس الألمانية.

وحتى عام 1848 حافظت النمسا على قوانين صارمة تتصل باليهود حيثما وجدوا.

وفي موراڤيا كان باستطاعة اليهود أن يعيشوا فقط في 52 تجمع يهودي محدد وكان يسمح لهم أن يقيموا فقط في بلدات ومدن كبيرة إذا تم اعتبارهم من فئة «اليهود الذين يستحقون التسامح» من قبل السلطات المحلية التي فرضت عليهم ضريبة «التسامح».

في عام 1848 اجتاحت أوروبا الثورات، إذ طالب المواطنون في فرنسا وألمانيا وكرواتيا وهنغاريا وأجزاء من إيطاليا أن تصبح حكوماتهم الأوتوقراطية جمهوريات حديثة ذات صحافة حرة وانتخابات ديمقراطية. تعرضت جميع هذه الحركات إلى البطش من قبل الملوك والأباطرة. ومع ذلك حصل التحرريون Librals في النمسا على نفوذ محدود تحت سيطرة حكومية مركزية محكومة من قبل الامبراطور فرانز جوزف وتم تأسيس برلمان سمي باسم ريتشسرات Reichsrat في ڤيينا أما المجلس الامبراطوري (الذي هو عبارة عن مجموعة من مستشاري الامبراطور فرانز جوزف Franz Josef فقد امتلأ بساسة ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة بدلاً من الأرستقراطيين مُلاك الأراضي وقامت اللجان مسرعة بتأليف وتنقيح وطرح ثمانية دساتير مختلفة خلال 20 عاماً. حاول النمساويون أن يقيموا مجتمعاً جديداً يقوم على سلطة القانون والانتخابات الديمقراطية والعلمانية أو اللادينية للحلول محل الدولة القديمة التي حكمها الملكيون والكنيسة الكاثوليكية لقد كان نجاحهم ممزوجاً.

لم يحصل التحرريون النمساويون أبداً على دعم كبير

خارج نطاق مسيحيي الطبقة المتوسطة واليهود في المدن الكبيرة، وبقوا في السلطة عن طريق حصر حق التصويت للرجال الذين يملكون المال والذين يمكن أن يقدموا الدعم لهم. في عام 1873 كان باستطاعة 6 بالمئة فقط من البالغين الذكور النمساويين أن يدلوا بأصواتهم. على أية حال كانت الإصلاحات القانونية التي أحدثها التحرريون مهمة جداً بالنسبة إلى فرويد وأسرته.

وقبيل عام 1867 عندما كان عمر سيغيسموند 11 عاماً، لم يقض فقط التحرريون النمساويون على القوانين المناهضة لليهود بل حتى انضم يهود كثر إلى الحكومة. وكما استذكر سيغيسموند فيما بعد لقد كان الزمن الذي في حينه حمل كل صبي يهودي مجتهد حقيبة وزير في حقيبته المدرسية. كان يعلم تمام العلم أن سبب حظه السعيد هو إصلاحات التحرريون وقد أيدها بقوة.

ومع ارتفاع أسهم الحظ عند اليهود وازدياد عدد السكان اليهود في ڤيينا اندفعت الأسر أفواجاً نحو العاصمة. وفي عام 1857 كان هناك 6,000 يهودي في ڤيينا وقبيل عام 1867 أصبحوا 40,000 يناهزون نسبة 6 بالمئة من عدد السكان. كان بعض اليهود المنحدرين من أسر ڤيينا «الممنوحين صفة التسامح» يتحدثون الألمانية ويتوافقون جيداً مع الجو الثقافي في ڤيينا. وآخرون مثل أسرة فرويد قدموا من بلدات صغيرة في المناطق النائية. وعلى غير حال كثير من اليهود الفقراء كانت أسرة فرويد

obeikandl.com

تتحدث الألمانية الفصحى في البيت وليست الياديش Yiddish وهي اللغة الألمانية العامية التي كان معظم اليهود الشرقيون يتحدثون بها. حاولت أسرة فرويد كما هو الحال بالنسبة لكثير من الأسر اليهودية أن تحاكي الطبقة المتوسطة المسيحية. ومع صحوة الإصلاحات التحررية في النمسا دخل الطلاب اليهود عالم المهن بأسرع صورة ممكنة. وقبيل العقد الذي يبدأ بعام 1880 ارتفع عدد سكان اليهود إلى 72,000 نسمة وبلغ 15 بالمئة من العدد الكلي للسكان وكان أكثر من نصف عدد المحامين والأطباء والصحفيين في المدينة من اليهود. كما كان اليهود مغالين أيضاً في حقول الفنون والمصارف والتربية والتعليم.

هذا لا يعني أن معاداة السامية قد اختفت من ڤيينا. إذ كان على سيغيسموند أن يتحمل التقريعات المضادة لليهود من زملائه في صالة الرياضة، وفي مدرسته الثانوية كما لم ينجُ عمله المهني فيما بعد من براثن التمييز. وعلى الرغم من ذلك كان يهود ڤيينا أثناء طفولته وشبابه متفائلين واستطاع أن يمارس عمله من غير خوف شديد من التمييز. نشأ سيغيسموند محاطاً بالتاريخ التوراتي. وفي الفترة المتأخرة من حياته ملأ كتاباته بمراجع العهد القديم وكثيراً ما كان يكتب عن المعاني والمضامين النفسية للتوراة. ومع ذلك أصبح ملحداً متشدداً (وهو الشخص الذي لا يؤمن بأي إله) في مرحلة مبكرة وبقي كذلك طوال حياته. كانت مشاعره حول هذه المسألة قوية جداً

إلى درجة أنه قاطع وهو في سن الرشد جميع المناسبات الدينية اليهودية في بيته إلى درجة أفزعت زوجته. (إلا أنه كتب في سيرته الذاتية «لقد كان والداي يهوديين وبقيت أنا نفسي يهودياً») لقد خشي أن يصبح التحليل النفسي أكثر شعبية أن ينظر إليه على أنه علم يهم اليهود فقط.

فعمل بكل ما أوتي من قوة على أن يشجع غير اليهود على نشر التحليل النفسي في أوساط المجتمع. لم تسفر هذه الجهود على إثارة إعجاب النازيين حينما غزا جيش أدولف هيتلر Adolf Hitler النمسا في عام 1938. وقع جميع اليهود سواء أكانوا متدينين أم غير متدينين في خطر إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والقتل، فاضطر فرويد إلى مغادرة ڤيينا.

وبما أن فرويد كان الطفل من الزواج الثالث لأبيه فقد أساء فهم تركيبة أسرته إذ تزوج يعقوب فرويد أميليا ناذانسون Amalia Nathansohn في عام 1855 عندما كان عمره 40 عاماً وكان عمرها 20 عاماً. لقد كان ابني يعقوب من زواجه الأول عمانويل وفيليب أقرب كثيراً في السن إلى أميليا من أبيهما. وكان عمانويل يكبر أميليا في السن بينما كان فيليب يصغرها بسنة واحدة. وكان من أوائل رفاق سيغيسموند في اللعب ابن عمانويل واسمه جان John أي أن سيغيسموند هو في الحقيقة عم جان لكنه يصغر ابن أخيه بسنة. اعتقد سيغيسموند بشكل طبيعي أن أخيه من والده فيليب، العازب، يصلح لأن

يكون زوجاً لأميليا أكثر بكثير من أبيه يعقوب لكن يعقوب كان هو الزوج لأميليا.

عند ولادة شقيقة فرويد الصغرى أنّا Anna خشي سيغيسموند أن يكون فيليب قد حل محل أبيه وأنجب من أمه طفلاً. وفي ذات الوقت كان سيغيسموند يعاني من مشاعر مختلطة تجاه أمه الجميلة الشابة، إذ كان هو أيضاً في رعاية مربية تشيكية عجوز وبدت له هذه المربية العجوز أكثر ملاءمة ليعقوب من أميليا. وكانت تأخذ هذه المربية الكاثوليكية المتحمسة سيغيسموند خلسة إلى الكنيسة. ذكرت أميليا فيما بعد لابنها «عندما كنت تعود إلى المنزل كنت تمارس علينا التبشير وتخبرنا بما يفعل

أسرة فرويد في عام 1876 يقف سيغيسموند (في الصف الأخير والثالث من اليسار) إلى جانب أخيه من والده عمانويل أحد أبناء أبيه من زيجاته السابقة.

الله سبحانه». اعتقد كثير من الباحثين أن هذه المربية كانت مصدر إعجاب فرويد بروما مركز إقامة البابا الكاثوليكية وكانت كمربية تُعنى بغسل فرويد وتدريبه على استخدام المرحاض.

كان يستمتع باهتمام مربيته به ويتذكر بفعالية حينما بدأ يسبر أغوار ذكريات طفولته المنسية في سنوات العقد الذي يبدأ بعام 1890.

مثل فرويد مثل جميع الأطفال، كانت لديه مشاعر مختلطة تجاه إخوانه وأخواته عندما ولد شقيقه يوليوس Julius كان عمر فرويد 17 شهراً وكان غيوراً جداً. توفي يوليوس بعد سبعة أشهر ثم جاءت شقيقته أنّا بعد عدة شهور مغتصبة مكانته كطفل وحيد إذ لم يشعر أبداً بمحبة كبيرة تجاهها في حياته اللاحقة. عندما كان عمر سيغيسموند سنتين ونصف السنة، اتهم أخوه من أبيه فيليب مربية فرويد بالسرقة وتم القبض عليها وإدانتها ووضعها في السجن. انزعج سيغيسموند كثيراً مثل أي طفل صغير آخر، وعندما كان فرويد فيما بعد يُنَظّر عن علاقات أسرته تذكر هذه المشاحنات بوضوح كبير.

كانت ڤيينا في طفولة فرويد مدينة متسارعة في النمو ونابضة بالحياة. تضاعف في ڤيينا عدد المراكز والأعمال التجارية والسكان بين عامي 1840 و1870. وفي عام 1857 أعلن الامبراطور فرانز جوزف أن الدائرة الكبيرة من الأرض المفتوحة التي تحيط بالمدينة والتي كانت من قبل

obeikandl.com

موقعاً للحصون العملاقة، ينبغي أن تُشيّد للاستخدامات المدنية.

أصبحت هذه الأرض شارع ڤيينا الكبير رسمي باسم رينغ ستراس Ring Strasse والمعنى الحرفي له «الشارع الدائروي» وعندما تم تخصيص شارع رينغ ستراس في عام 1865 امتلأ على الفور بالمنازل ذات الشقق الفسيحة والمباني العامة الضخمة.

وخلال العقدين الذين تلا ذلك. شيدت ڤيينا بسرعة بيت الأوبرا والمتاحف وبناء البرلمان وقاعة المدينة بالإضافة إلى المقاهي المتنوعة والخلابة.

في نهاية القرن التاسع عشر ازدهرت ڤيينا وأصبحت مركزاً للطب. وقبيل انتهاء القرن ظهر نجوم كبار من أمثال الفنان غوستاڤ كليمت Gustav Klimt والموسيقاريون غوستاڤ ماهلر Gustav Mahler وآرنولد سكو إنبيرغ Arnold Schoenberg والكاتبان آرثر شنيتزلر Arthur Shnitzler وهوغو ڤان هوفمانزثال Hugo Van Hofmannsthal والعشرات من المفكرين الآخرين الذين أثروا الثقافة في ڤيينا.

لم يستفد فرويد كثيراً من هذه المباهج المدنية. لم يأبه بالرواد الطليعيون من الكتّاب والفنانين والموسيقاريين المعاصرين ولم يستمتع أبداً بقضاء أوقاته في المقاهي. إلا أن متعته الكبرى في ڤيينا بالإضافة إلى مسيرته اليومية كانت متاحفها.

بدأ فرويد تحصيله الدراسي في ڤيينا وفي البداية تعلم على يد والده في البيت. وبعد ذلك ذهب إلى مدرسة ابتدائية خاصة وبعدها دخل وهو في عمر 9 سنوات إلى المدرسة الألمانية gymnasium وهي مدرسة تضم المرحلتين الثانوية والإعدادية. لقد كان الأول في صفه لمدة ستة أعوام من أصل ثمانية أعوام حضرها في المدرسة الألمانية. وكان فرويد نهماً على قراءة الأدب الكلاسيكي القديم عند الرومان والإغريق. وتعلم اللغات اللاتينية واليونانية بالإضافة إلى الفرنسية والإنكليزية (وعلَّم نفسه اللغة الإسبانية واللغة الطليانية إلى جانب ذلك)، قرأ فرويد أيضاً مسرحيات شكسبير Shakespeare في اللغة الإنكليزية. وكقارئ ممتاز حتى في شبابه، أخذ على عاتقه مراقبة الكتب التي تقرؤها شقيقته. أخبر أنَّا وكان في حينه 15 عاماً، أنها لا تستطيع قراءة أعمال الكاتب الفرنسي أونر دي بالزاك Honoré de Balzac الذي ألّف سلسلة من الروايات تحت عنوان الملهاة الإنسانية Human Comedy لأنها كانت عنصرية جداً. وكان طبيعياً مع اقترابه من سن العشرين أن يتابع تعليمه في جامعة ڤيينا.

في البداية فكر فرويد أن يصبح محامياً وصرح في سيرته الذاتية «بتأثير قوي من صداقته مع زميل له يكبره بقليل في المدرسة الألمانية والذي أصبح فيما بعد سياسياً مشهوراً، أردت أنا أيضاً أن أدرس القانون وأصبح فعالاً اجتماعياً». لقد غيّر رأيه عندما بدأ دراسته الجامعية، ومع ذلك، ادعى فيما بعد أنه اتخذ قراراً بأن يصبح عالماً

عندما استمع إلى محاضر وعالم حيوان مشهور يدعى كارل بروهل Carl Brühl، يقرأ شعراً مؤثراً عن الطبيعة بعنوان الأم الحنون. ولكي يحقق رغبته في دراسة الطبيعة توجب عليه أن يدرس علم الأحياء كجانب أساسي من جوانب دراسته.

في خريف عام 1873 تقدم فرويد بأوراق تسجيله في جامعة ڤيينا كطالب طب في المرحلة الأولى وهنا غيَّر اسمه من سيغيسموند إلى سيغموند. وبذلك يكون قد التزم بدراسة 10 فصول دراسية على الأقل على مدى (5 سنوات) من الدراسات الطبية. كتب فيما بعد «لم أشعر بولع محدد تجاه مكانة وعمل الطبيب في تلك السنوات الأولى ولا في السنوات التي أعقبتها. بل شعرت أنني مدفوع بدافع التعطش نحو المعرفة». وكشاب طموح كان فرويد مولعاً بالشهرة، كان يتحول في أنحاء الحرم الجامعي باحثاً عن تماثيل لأساتذة عظام متنبئاً أنه سيأتي ذلك اليوم الذي سيقف فيه هو أيضاً محدقاً بالطلاب من فوق، وناشداً الخلود. لقد تخيل أن تمثاله النصفي سيظهر عليه اقتباس عن أوديب الشخص الإغريقي الأسطوري الذي كسب مملكةً بواسطة حله للغز أبو الهول أو الحيوان الخرافي: «لقد اكتشف اللغز الشهير وكان أعظم رجل» (مقتبسة عن مسرحية الروائي الإغريقي القديم سوفوكليس Sophocles).

كان فرويد معجباً بنظرية تشارلز دارون Charles

Darwin المثيرة للجدل عن الاصطفاء الطبيعي، التي قدمها فرويد إلى العالم في عام 1859. وفي كتاب أصل الإنسان The Decent of man الذي نشر في عام 1871، بيّن دارون أن الإنسان، مثله مثل العضويات الأخرى، خاضع لعملية التطور، وقد انحدر من حيوان من ذوات الأربع أرجل الذي له ذيل وشعر. اعتقد كثير من الناس (ولا يزال يعتقد الكثير) أن هذه الفكرة هي إهانة للإنسان ومعصية لله. ومع ذلك رأى فرويد وزملاؤه العلماء نظرية دارون رؤية مختلفة.

إن النظرية التي تقول أن «الله هو الذي خلق هذه السمكة» لا يمكن اختبارها. لكن النظرية التي تقول أنه «تم اصطفاء هذه السمكة لأنها تقدر على البقاء حية على نحو أفضل من أسلافها» عندئذ يتوافر للعلماء عدد كبير من الألغاز (الأسئلة) التي تتطلب حلاً (أجوبة): ما هي الأسماك الأخرى التي لها علاقة مع هذه السمكة؟ وكيف تختلف عن بعضها البعض؟ وما هي الأعضاء المتماثلة؟ ومتى حصل التغير؟ وهل خضعت أنواع أخرى من الحيوانات من مثل الضفادع أو الدولفينات لنفس التغيرات؟ ولماذا كان هذا التغير مفيداً؟ وهل كان هناك اختلافاً في البيئة مكّن من حدوث هذا التغير؟

وباختصار، جعلت نظريات دارون علم الأحياء الحديث ممكناً. من الصعوبة بمكان وصف الأثر العظيم الذي تركه دارون على البحوث في علم الأحياء. عندما

obeikandl.com

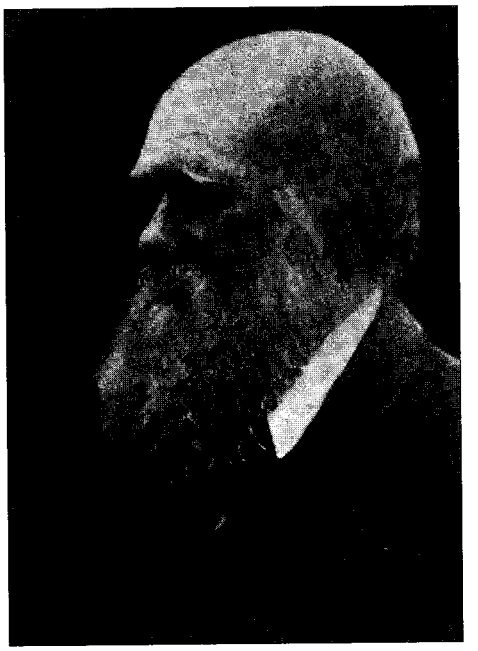

عندما كان فرويد طالب طب في جامعة ڤيينا أصبح معجباً بنظرية الاصطفاء الطبيعي المثيرة للجدل التي قدمها عالم الأحياء الإنكليزي تشارلز دارون (في الأعلى).

كان فرويد يحضر في جامعة ڤيينا كان علماء الأحياء يبحثون عن أدلة نظرية التطور في كل مكان. وكما كتب فرويد فيما بعد «لقد جذبتني اعتقادات دارون بقوة لأنها بشرت بتقدم فوق العادة في فهمنا للعالم» من المرجح أن يكون فرويد، الملحد العلماني الذي كره بشدة الفكر غير العقلاني، سعيداً بنظرية دارون حول أصول الأنواع بعيداً عن الفكر الديني. وكان فرويد قد نقب في أعمال الفيلسوفين لودڤيغ فيورباخ Ludwig Feuerbach وفرانز برينتانو Franz Brentano. عارض فيورباخ بكل ما أوتي من قوة معظم الفلسفة وعلم اللاهوت (وهو دراسة العقيدة الدينية)، داعياً إلى وجوب استبدال علم اللاهوت بعلم أصول الأقوام البشرية وهو دراسة التطور والنمو الإنساني. أما علم اللاهوت فهو مجرد انعكاس للتجربة الإنسانية كما جاء عند فيورباخ. وهذه قضية جادل عنها فرويد مراراً وتكراراً بعد عدة عقود في كتابيه مستقبل الوهم The Future of Illusion والطوطم والتابو Totem and Taboo. وفي الوقت الذي كان فيه فرويد نهماً على قراءة كتب فيورباخ حضر خمس مقررات مؤلفة من محاضرات وحلقات بحث قام بتدريسها برينتانو الذي لقب نفسه «بعالم النفس التجريبي» أي عالم النفس الذي يدرس

العقل عن طريق الملاحظة والتجربة.

اهتم برينتانو القس السابق بكيفية عمل الفعل وليس بماهية المعلومات التي يكتسبها. كما كان رينتانو عالماً أيضاً لم يفقد إيمانه بالله. وهذا وضع رآه فرويد مثير للاهتمام. يضاف إلى ذلك أن برينتانو كان خبيراً بالفيلسوف الإغريقي أرسطوطاليس وأثره على علم النفس.

وفي السنة الثالثة من دراسته استقر في مختبر مكرس لعلم الفيزيولوجيا وهو دراسة وظائف العضويات الحية ومكوناتها من مثل الأنسجة والأعضاء والخلايا. كان المختبر يدار من قبل إرنست بروك Ernst Brucke وهو أحد علماء ڤيينا البارزين. عمل فرويد هناك لخمس سنوات تلت، وأثناء مسيرة فرويد في الحياة تبنى كثيراً من الرجال بمثابة آباء روحيين ومرشدين حكماء يدين لهم بأعظم الولاء. كان بروك أحد الأوائل، إذ كان يكبر فرويد بأربعين عاماً ويساوي عمره تقريباً عمر يعقوب فرويد.

إلا أنه بالمقارنة مع يعقوب الذي يتصف بالمرح والسلبية كان بروك متحفظاً درب عمل كثير (المطالب). وحيثما كان بروك يحضر الامتحانات الشفهية للطلاب كان يسأل سؤالاً واحداً فقط، وإذا لم يعرف الطالب الجواب لا يسأل مزيداً من الأسئلة ويبقى صامتاً حتى تنتهي فترة 15 دقيقة امتحان. وحينما اكتشف بروك المتصلب

والمتسلط أن فرويد يأتي متأخراً إلى المختبر أصبح يقف خارج الباب في الوقت الذي يقع فيه المختبر وينتظر. لم ينس فرويد أبداً «العينان الزرقاوتان المخيفتان اللتين نظرا بهما إليّ قبل أن أختفي» وهذا انطباع تذكره في كتابه «تفسير الأحلام» ومع ذلك عشق فرويد بروك الذي منحه الإحساس بالانضباط الذاتي المهني. ومثله مثل كثير من أساتذة الجامعة الآخرين في ذلك الوقت كان لبروك اهتمامات ثقافية قوية أيضاً. لقد كان رساماً موهوباً واخترع جهاز كتابة صوتي عالمي مدعياً إمكانية استخدامه في ترجمة جميع اللغات.

أمضى فرويد خمس سنوات يعمل في مختبر إرنست بروك الذي يجري دراسات في علم الفيزيولوجيا. اعتبر فرويد بروك أنه المعلم الخاص له ولم يغادر مختبره إلا حينما اضطر أن يجد وظيفة أكثر دخلاً.

من الناحية المهنية كان بروك عضواً من جماعة من العلماء الذين كرسوا أنفسهم في بواكير العقد الذي يبدأ عام 1840 للتصدي للمذهب الحيوي Vitalism، وهي مدرسة في علم الأحياء فسرت النشاط الحيوي للعضويات على أنه مستمد من قوة حيوية غامضة. يفترض بهذه القوة الحيوية أن تكون غير مادية، على نحو يشبه الروح. اعتقد بروك وزملاؤه جازمين أن القوى الفيزيائية والكيميائية هي وحدها التي تؤثر على العضويات. إن أي فعل للكائن الحيوي أو لعضو من أعضائه يمكن اختزاله إلى قوانين فيزيائية أو كيميائية. حقق المناهضون للمذهب

الحيوي من خلال التجريب الدقيق تقدماً كبيراً في علم الفيزيولوجيا وفي دراسة الكيفية التي يتغير بها الإدراك الإنساني بسبب تغيرات في المثيرات الفيزيائية كلمعان الضوء. عندما غادر فرويد مختبر بروك كانت الفكرة التي أفادت بإمكان اختزال أي ظاهرة حيوية إلى قوانين فيزيائية قد ترسخت في عقل فرويد. بعد انقضاء فترة طويلة من ممارسة فرويد المهنية وذلك حينما اكتشف أسباب السلوك الإنساني بحث فرويد عن تفسيرات قامت على ملاحظة العمليات الفيزيائية التي تقف وراء عملية توجيه الطاقة النفسية.

في أثناء عمل فرويد مع بروك نشر عدداً من أوراق البحث حول بنية الأجهزة العصبية عند السمك وجراد البحر Cray fish وكذلك حول بنية الأعضاء الجنسية عند حيوان الأنقليس eel وقدم طريقة جديدة لفصل هذه الأعضاء عن سائر النسج. بذل فرويد ثمانية أعوام للحصول على الدرجة العلمية وهذا يزيد ثلاثة أعوام على معدل الفترة التي يحتاجها عادة طلاب الطب. وفي عام 1879 انقطع عن متابعة دراساته بسبب سحبه إلى الجيش وقد أمضى عاماً في الخدمة العسكرية في وقت السلم يُعنى بالجنود المرضى. ومع ذلك أظهر فرويد أنه قادر على العمل بسرعة أثناء وجوده في الجيش. وخلال ذلك العام ترجم أربعة مقالات للفيلسوف جان ستيوارت مل John Stuart Mill من الإنكليزية إلى الألمانية، وكانت مهمة حصل عليها بتوصية من معلمه القديم فرانز برينتانو.

obeikandl.com

بعد نجاحه في امتحانات التأهيل للحصول على الدرجة العلمية في الطب، حصل فرويد على وظيفة قليلة الأجر وهي وظيفة معيد في معهد بروك للفيزيولوجيا.

وقد ترك المعهد فقط حينما لم يكن لديه أي خيار آخر. لم يكن فرويد غبياً أو بطيئاً لكنه لم يتوافر لديه حافز قوي لترك المختبر الذي استمتع بإجراء البحوث فيه والقدرة على العمل المنتج فيه. على أية حال لم يكن في مقدور بروك أن يقدم الدعم بشكل دائم إلى طالبه.

وربما كان فرويد ينتظر بفارغ الصبر الحصول على منحة مساعد باحث في مختبر بروك. ومن سوء الطالع بالنسبة لفرويد أن كلا مساعدي بروك كانا صغيري السن وكان من غير المحتمل أن يتركا عملهما. ويضاف إلى ذلك أن المال قد أصبح بشكل متزايد مهماً جداً بالنسبة لفرويد. فقد التقى بامرأة شابة تدعى مارثا بيرنيز Martha Bernays في شهر نيسان من عام 1882 أثناء زيارتها لإحدى شقيقاته. بعد شهرين تمت خطوبة فرويد على بيرنيز. افتقد المخطوبان للمال اللازم لإقامة دار الزوجية، ومع ذلك انتهز بروك الفرصة ليخبر فرويد أن لا يتوقع أبداً أن يستطيع إعالة زوجه من خلال عائدات عمله في البحث. وخلال ستة أسابيع من خطوبته، بدأ فرويد عملاً جديداً بصفته متدرباً مبتدئاً في مشفى ڤيينا العامة.